

- 2..... يواخيم هيلفر يرد على سمير جريس
- 5..... الديوان الغربي الشرقي بقلم فولكر فايدرمان
- 8..... لم ولن يلتقيان مراجعة بقلم ميشائيل كليبيرغ

## يواخيم هيلفر يرد على سمير جريس

سمير جريس يكتب لمكتب تحرير القسم العربي في محطة " دويتشة فيله " في بون كترجم . وقد ظهر عرضه النقدي لكتاب " جعل العالم مثلي الجنس " في 8 تشرين الثاني ( نوفمبر ) 2006 في الطبعة الدولية من جريدة " الحياة " العربية . المقال وترجمته الإنجليزية أيضاً موجودان في موقع الإنترنت [www.westoesstlicherdiwan.de](http://www.westoesstlicherdiwan.de) . وقد كتب يواخيم هيلفر هذا الرد في الثاني شباط ( فبراير ) 2007 :

عزيزي السيد جريس

تسألني عن رأيي في نقدك : أرى الآن ( بقدر ما يمكنني الاعتماد على الترجمة ) أن بعضه كان صحيحاً ، وعلى عكس ذلك ، كان بعضه الآخر خاطئاً ، بل جزئياً غير عادل أيضاً ، وبالتفصيل : أنت تشير ، بحق ، إلى عدم التوازن ذلك الذي يعاني منه مشروع الديوان العربي الشرقي برمته لأن المشاركين من العالم العربي / الإسلامي أكبر سناً ، وقد باتت أعمالهم مترجمة . لقد كان الأمر ، بطبيعة الحال " حرجاً جداً بالنسبة لرشيد ولي ، فهو لم يكن بقادر بتاتاً على التعاطي مع إنتاجي الأدبي ، وقد وصفت ذلك في بداية كتابي مباشرة ؛ ولم يكن ذلك ذنب أي واحد منا . إن الأمر ببساطة هو هكذا ، فأديب مثل غونتر غراس أو بيتر هاندكه لن ينفق وقتاً على مثل ذلك ، بل لن يفعل ذلك أبداً وخاصة لقاء هذه المكافأة المتواضعة نسبياً .

أما كون توماس هارتمان قد لفت نظر رشيد منذ البداية إلى مثليتي الجنسية فذلك قد يكون صحيحاً أو خاطئاً ؛ إذ كان على رشيد – وهذا ما أشرت إليه انت بحق – أن لا يقلصني في حدود ذلك فقط ، علماً أنني لا أعني بهذا إطلاقاً أنه كان خطأ أن نحدد أنفسنا بهذا الاعتبار في تقريرنا النهائي ، فالموضوع متفجر وذو جدوى على نحو جلي . لقد برهن رشيد على شجاعته – وهذا أيضاً مما أتفق عليه معك – حينما تناول هذا الموضوع بانفتاح ، وكذلك شجاعته في كشف نفسه ، وقد شددت على ذلك أكثر من مرة في ردي . أما ما أجده غير مفهوم بتاتاً فهو لماذا تجد ردودي مخادعة بل ومناقضة تماماً ، ما الذي أصمت عنه ؟ أين كنت أكذب ؟ لقد قدم رشيد رؤيته ، أعني أن قصدي لم يكن القيام بمبارزة وإنما إجراء حوار . أما أن تكون الكلمة الأخيرة في ذلك لي فتلك لم تكن رغبتني ؛ لقد كانت رغبتني أن نخوض حواراً حقيقياً متبادلاً . ولكن رشيد هو الذي بدأ بنشره حواراً ذاتياً ( مونولوج ) عني . وقد أعطى نفسه الحق في حرية تأويل حياتي الخاصة ، وهذا ما لم أسمح له به بأي حال من الأحوال . بل كنت ، أكثر من ذلك ، أتوقع منه أن يلتزم بالأعراف الأدبية والصحفية والحقوق الشخصية ، فإمّا أن يكتب ريبورتاجاً مراعيّاً للأخريين يقدم فيه يواخيم هيلفر الحقيقي ، ويقدم فيه أحاديثنا ، ولكن ليس حياتي الخاصة ، أو أن يكتب نصاً متخيلاً يعود فيه الألماني إلى رشده كسردي أدبي يصل حدّ تقنيع شخصيتي ، إلا أنه بدلاً من ذلك أراد أن يتخطى الحدود الأدبية على حسابي الخاص . وقد منح نفسه الحرية متعللاً بأنني أكشف شخصياً في أعمال الأدبية عن حياتي الخاصة . أتفهم أن ذلك يذكرني بالحجة التي يتعلل بها ممارسو الاغتصاب بصورة كلاسيكية : لقد كانت ترتدي تنورة قصيرة للغاية ؟ في الحقيقة شعرت كأن نصه كان اغتصاباً ، ولا أظن أنني أتجنّى على رشيد : لقد أراد أن ينتصر علىّ ، أن يغتصبي على مسرح مفتوح – وهو يشعر بالمساواة الآن لأنني أعرف كيف أدافع عن نفسي ، ماذا كان عليّ أن أفعل إذن ؟ إذ لم يبق لي – نظراً لمونولوجه الأحادي الجانب – أي خيار سوى

منع نشره أو التعليق عليه ، وقد أعلمته بالخيار الثاني فأبدي تفهماً لذلك ، مثلما أكد لجريدة " L'Orient le Jour " البيروتية .

إنّ المخادعة التي تتهمني بها يمكن أن تصح فقط على شكل تعليقي المتعلق بمقاطعة أو اعتراض نصّه ، لقد كان هذا ، بلا ريب ، اعتداء على نصه ، ولكن هل تعادل هذه المقاطعة منولوجه الذي تركته ، بالمناسبة ، كلمة كلمة بدون أي تعليق ، والذي كان في الحقيقة أشد قسوة من هجومه علي ، ثم ما الذي كان أسوأ من كل ذلك أيضاً ، وثالثاً ؟ شريك حياتي ، صديقتي ، حبيبتي الشابة ؟ وبصرف النظر تماماً عن ذلك الذي يبدو كأنه هكذا ينشأ الحوار على أية حال ، فإن قراءة حية لنصه ( الذي يمكن للمرء أن يقرأه بدون جهد في كتاب ناجز ) لم يكن ليكون تحمله ممكناً – في رأي كثير من كتاب المراجعات النقدية – بدون مقاطعاتي .

أما حكمك بأنني أتحدث منذ البداية بنبرة لاذعة فإنه غير معقول ، ومع كل ذاتية مثل هذه الأحكام ، فإن كل تقويم للأسلوب يُظهر أنني اشتمل على مقدار راجح من التهكم والسخرية اللاذعة والشماتة ، وأظن في المقابل موضوعياً ، بل إنني أدعو في بعض أماكن عدة إلى تفهم موقف رشيد الذي يظلّ غريباً نوعاً ما على القارئ الألماني .

أما الزعم بأن ردودي كانت أكثر طولاً من نص رشيد فقد كان خاطئاً ؛ وفي الحقيقة فإنني كنت أعلق أهمية على أن تكون كتابتي في محصلتها النهائية أقصر من نص رشيد .

وأخيراً فإن من الخطأ الزعم بأنني أسوق تعميمات بشكل أساسي : لقد كان رشيد يعرض موقفه في نصه كما في أحاديثنا أيضاً باعتباره يمثل الرأي العربي عموماً . إن قناع " رشيد " هو " العربي النمطي " ، " الشرقي النموذجي " وبناء

على مقصده وليس بناء على مقصدي الذي تم توضيحه . إذا أردت أن أصف أسلوب رشيد في السلوك وأقواله التي تماثل الكليشيهات فإن ذلك لا يغيّر شيئاً في عرضي لما قال أو فعل ، فالحقيقة هي أنه أظهر جهلاً فيما يتعلق بأمور الثقافة والتاريخ الأوروبيين . هل ينبغي أن أسكت عن هذه التصرفات والأقوال لكي لا اقترب من قول منط ( كليشيه ) لا يلعب ، بدون هذا أو ذاك ، أي دور في ذهني ، فاللبنانيون الذين عرفتهم حتى الآن ، قد تلقوا – على العكس من رشيد – تعليماً أوروبياً ، وهم شديداً الاهتمام بأوروبا ؟ إن مغزى مثل هذا التبادل لا يمكن أن يكون في الرياء والكذب ، فقد أدعى رشيد التحدث باسم العرب : ينبغي أن تشعر بالانزعاج من كونه يرفع عقده الذاتية وجهله المتعطرس بوصفهما برنامجاً عربياً ، وليس لأنني أقتبستك على نحو مطابق للحقيقة . إنني لم أقل ولا يمكن أن أقول أن جميع العرب هم مثل رشيد ، بيد أن ألمانيا طبيين مثل ميشائيل كيلبيرغ يطالبونني بوجود القول بأن رشيد دماغ متنور ظريف ، لأنه عربي ، بل لأنه أديب عربي في الحقيقة ؛ وأن عليّ أن أصمت على الأقل حينما يتصرف مثل شخص جاهل خجول من قاطني الغابات . ولكي أحقق هذه المطالب يتوجب عليّ أن أعتبر رشيد عربياً نمطياً يعمل بنفسه على تشكيل ذاته على تلك الشاكلة ، وأن أضمر عنصرية وتمييزاً ثقافياً معادياً للعرب ؛ وهذا بالضبط ما لا أفعله . يوجد في ألمانيا رجعيون وجهلة ودعاة تمييز على أسس جنسية مثلما يوجد في البلاد العربية أيضاً ، وحين ألتقي بأحدهم فإنني أعبر عما أشاهده وأسمعه وأفكر به . أما التقييم الذي يقول بأن رشيد قد كتب بحنان وحب فلا يمكنني مشاطرته الرأي ؛ إنني ، كما سبق القول ، وجدت بأن نصه كان أقرب إلى أن يكون نوعاً من الاغتصاب ، ولا يمكن تقديم مثل ذلك على نحو موضوعي ، غير أنه ينبغي أن يكون من المثير بالنسبة لك ، أن لبنانيين عدّة ، مثلي الجنس وغير مثلي الجنس ، شعروا بذلك من تلقاء أنفسهم ، وقد انتقدوا رغبة رشيد بأن يسجل انتصاراً : هل يمكن للمرء أن ينتصر بحنان وحب ؟

كلمة أيضاً حول المشهد غير اللطيف في المتحف اليهودي : إنّ ذلك ينطبق على ما سبق أن قلته عن جهله ، وعدم اهتمامه الاستعراضية ، وغروره . فأنا لا أشارك في مثل هذا التبادل لكي أمارس تجميل الأشياء والرياء بعد ذلك . إن هذه هي فقط نقطة حرجة بشكل خاص في تعليقي . لقد قال هناك حرفياً ما سأقتبسه بالحرف الواحد ، وكان ينبغي أن أشير إليه في تقرير الختامي لأنه ببساطة ، قد أثر في تأثيراً

خاصاً . لقد جعلني ذلك عاجزاً عن الكلام وهذا ما كان . وهنا كنت أنت محقاً ثانية ، لقد كانت تلك غلطة مني إذ كان يتوجب عليّ أن أسأله على الفور عما كان يعنيه ، بيد أنني كنت أشعر أن الأمر كان أكثر مما في وسعي فكانت ردة فعلي خاطئة ، هذا صحيح ، ولكن ! إنك تتهمني بأنني اعتبرته لاسامياً بدون أي شك بناء على هذه التصريحات غير الموفقة . فكيف تستطيع إذن تصديق أنني واصلت مشروع التبادل ؟ ورجوته أن يزورني في بيتي . بيت شخص يهودي ؟؟ لماذا كان عليّ أن أفعل ذلك . لا أعرف كيف ترى الأمر غير أنني لا أخوض مع العنصريين واللاساميين والمعادين لمثليي الجنس أي علاقة خاصة . إن مواصلة اللقاء تبرهن من ناحيتي على عكس ذلك تماماً ، أي أنني لم أصنّفه بصفته معادياً للسامية . كما أنني لم أزعم أو أقترّب من ذلك في وصفي للمشهد ، وإنني أحذر نفسي وبذلك أحذر القراء أيضاً بشكل واضح من أن لا يسيئوا لرشيد . إن الطعنة المميّنة التي تتحدث عنها لم تصدر مني ؛ فقد كان على رشيد بدلاً من أن يجأ بالشكوى من أن أقواله قد اقتبست ، كان عليه أن يوضح ماذا كان يعني بتلك العبارات .

كنت محقاً تماماً في كوني أستند إلى ثقافة واحدة ، ولكنك تخطئ في تقدير وضعي حينما ترى في ذلك موقفاً أوروبياً . لا أعتقد أن هناك ثقافة مفردة ، بل أعتقد أن هناك ثقافة في جهة ، وبربرية في جهة أخرى . وما أسميه ثقافة يشتمل على البشر واللغات والأديان من جميع أرجاء العالم ، وليس العرب والألمان في الموقع الأخير . إن قتل الناس واضطهادهم لأنهم يحبون إذا كانوا يحبون ( أو لأنهم يؤمنون بما يؤمنون به ، أو لأنهم يقولون ما يقولون ) هو دائماً وحيثما كان بربرية . وليس فقط من حق كل منقّف ، بل من واجبه أيضاً ، حتى لو كان أصغر سناً ، أن يعلم هذه الأفكار الأساسية ويكررها ما دامت غير مفهومة أو مقبولة في جميع أرجاء العالم – بهذا المعنى ، وبهذا المعنى فقط ، يحق لك وصفي بأنني أمبريالي ثقافياً ...

أزجي لك تحيات قلبية !

يوأخيم هيلفر  
( الحياة 2006/11/8 )

كانون الثاني ( يناير ) 2007

ترجمة : د. إبراهيم أبو هشيش

## الديوان الغربي الشرقي بقلم فولكر فايدرمان

التبادل بين كاتب ألماني وآخر لبناني يعزّز الأحكام المسبقة ويغيّر كل شيء

بقلم فولكر فايدرمان

لقد لمع هذا الكتاب مثل البرق في عالم معتم ، عالم تسوده الكراهية والحروب والإرهاب ، ويوغل فيه على نحو متواصل ابتعاد العالم الغربي عن العالم العربي من جهة ، ومن الجهة الأخرى تنشأ حوارات تنويرية تقوم بها طبقة متنوّرة تربّت كل واحدة منها على كنف الأخرى في كل مناسبة من مناسبات التبادل العربي الألماني مقدّمة ذاتها على نحو تنويري متسامح ومتجاهل لكل اختلاف . ولكن هذا الكتاب لا يسكت عن أي شيء ، لا عن حكم مسبق ولا عن جانب حميم أو أي قول منمّط ( كليشيه ) . لقد تمّ تخطي حدود الذوق السليم غير مرة ، وهذا ما أقر به أحد المؤلفين ، وقد أصيب القارئ بالذهول غير مرة حول الانفتاح وحول القصة التي هي حكاية خرافية من عالم الواقع . حكاية حقيقية تبدو أحداثها كأنها تجري على كوكبين مختلفين . إنه أدب حي .

بدأت القصة بطريقة لا يمكن أن تكون مملة حينما وقع الاختيار على كاتبين ، ألماني وعربي ، للمشاركة في برنامج للتبادل بين الكتاب ينظمه الديوان الغربي الشرقي ، وهو برنامج يهيء بصورة منتظمة فرصاً للالتقاء بين كاتبين ألماني وعربي يزور كل منهما بلد الآخر لمدة ستة أسابيع ، حيث يطالع المضيف ضيفه على عالمه وثقافته وبلاده . وقد جرى ذلك عام 2003 بين الكاتب اللبناني المرموق رشيد الضعيف الذي يناهز الستين والألماني يواخيم هيلفر الذي يصغره بعشرين عاماً ، وكان في ذلك الوقت أقل منه شهرة . وقد كتب كل منهما تجربته ورسم كل واحد للآخر صورة شخصية (بورتريه) ، وقد كانت صورة لاهوادة فيها ، وفي الوقت نفسه مفعمة بالحب ، من الأحكام المسبقة والأقوال المنمّطة (الكليشيات) من الحصر الثقافي للأخر وللذات .

كان الضعيف هو البادئ ، فقد دون قصة يواخيم فولكر الحميمية جداً ، وحين قدم مدير البرنامج توماس هارتمان النص المترجم لهيلفر ، قال : " لا يمكن نشر هذا إطلاقاً ، فأنت لا يمكن أن تسمح بذلك بأي شكل من الأشكال بل إنك لا تستطيع ذلك أبداً " غير أن هيلفر استطاع : " الكتب لا يمكن منعها " قال في أثناء الحديث : " بصرف النظر عن كيف ولماذا ، فإن الكتب لا يمكن منعها في أي ظرف من الظروف . " تمّ نشر نص الضعيف في لبنان بعنوان " عودة الألماني إلى رشده " وقد أصبح في هذه الأثناء من أكثر الكتب رواجاً بعد أن ظهر بالألمانية بعنوان : " جعل العالم مثلي الجنس – خطاب ضد خطاب " منشورات سوركامب ، 10 يورو . وقد عارض هيلفر نص الضعيف بتعليقات خاصة تقدم من ناحيتها بورتريهاً للضعيف .

إن الكتاب يوثق صراعاً كان ودياً في البداية ثم أصبح مريراً فيما بعد حول حرية تأويل قصة مذهلة .

الاعتزاز والحكم المسبق

بدأ كل شيء حينما قدم توماس هارتمان لرشيد الضعيف شريكه الألماني . وهذا ما نقرّوه لدى الضعيف على النحو التالي : " ذكر أعماله وشيئاً عن اهتماماته وما شابه ، غير أن ما لفت الانتباه هو تشديده على الإشارة إلى كون هذا الكاتب مثلي الجنس ! وحين لاحظت توقفه عند هذا الموضوع ، قلت إن هذا شأنه الخاص ولا دخل لي فيه . " لقد استغرب الضعيف من هذا التشديد ، هل يمكن تفسير ذلك من خلال أصوله العربية وأن المرء يريد ، ربّما ، أن يجعله على بينة من الأمر منذ البداية لكي يتمكن من رفض التبادل في ظل هذه المعطيات أو يطالب بشريك تبادل آخر . بيد أن الضعيف بصفته لبنانياً علمانياً متنوراً ، وشيوعياً بالطبع نأى بنفسه عن ذلك . إلا أن المرء يقرأ حالاً كيف بدأت أفكاره تثير الشكوك فيما إذا

كانت هذه المعلومة تسبب من القلق أكثر مما أراد الاعتراف به . لقد أفلقتة أكثر بكثير . وهكذا بدأت القصة . قصة عربي غيري الجنس لم ينتهز فرصة زيارة زميل ألماني مثلي الجنس ليطلعه على بلاده وثقافته فقط ، بل ليعيده ، قبل كل شيء ، إلى طريق الفضيلة من جديد ، إلى طريق حبّ النساء والخصوبة . كان الضعيف قلقاً على النموّ السكاني في ألمانيا ، وكان يوضح بأن معدل النمو السكاني المنخفض يرتبط سببياً بتشريع زواج مثليي الجنس والمراعاة المتزايدة لحقوق المرأة ، ويكتب عن شريكه مثلي الجنس : " ليس مستقبل ألمانيا والعالم هو ما يحرك يواخيم ، بل الاهتمام بمستقبله الشخصي . "

لقد حاول بجميع الوسائل أن يشفي صديقه من " عاهته " . ولما شارفت إقامة هيلفر في لبنان على نهايتها ، وفي صباح أحد الأيام حين كان الكاتبان يتواعدان للقيام برحلة إلى الجبال ، سأل الضعيف الصديق الصموت الذي أخذ على حين غرة : " ما الذي جرى لك ، إحك ! وقد حكى ! لم يكن بإمكانني أن أخمن مسبقاً ماذا سيخبرني آنذاك . لقد قال : " لقد غدوت أباً أمس مساءً . " أية صدمة وأي خبر مبارك بالنسبة للضعيف الذي لم يستطيع أن يصدق ذلك كله في بادئ الأمر : " قلت عليه أولاً أن ينتظر ، ولكنه رأى أن ذلك لا أهمية له ، وفكرت : يا إلهي ، ما الذي حدث ؟ هل أصبحت ألمانيا على ما يرام بين عشية وضحاها " .

لقد كتب الضعيف " ألمانيا " و " على ما يرام " . وكان ما يقصده أكثر من هذه الحادثة الخاصة المتعلقة بأن أديباً ألمانيا يعيش منذ أكثر من عشرين عاماً علاقة ثابتة مع رجل يكبره سنّاً قد أنجب فجأة طفلاً في لبنان . كان ما يعنيه هو السياسة والهوية والأخلاق . فقد كتب منذ بداية يومياته : " أعتقد أن الأخلاق هي ميدان المعركة الحقيقية بين الحداثة الغربية والعرب . " ويتذكر : " حينما ترجمت روايتي ( تصطفل ميريل ستريب ) التي تعالج هذا الموضوع إلى الفرنسية ، كررت في كل مقابلة بأن السرير هو المكان الفعلي الذي يمكن فيه البتّ في الأزمة بين الشرق والغرب . إن السرير هو ميدان المعركة بين التقاليد الغربية والحداثة الغربية ! "

في ضوء هذه الخلفية جاء رصد كل من بطلي قصتنا للآخر والكتابة عنه . لم ير الضعيف في مجمل سلوك هيلفر سوى الأنانية واللاعقلانية . وفي المقابل وصف هيلفر الضعيف بأنه زير نساء مهووس " متعلق بجاذبيتهم " مثل رضيع ، وبأنه غير مهتم فعلياً بالثقافات الأجنبية . في إحدى المرات قرر هيلفر أن " يريه " ألمانيا الحقيقية ، ألمانيا العريقة الغنية بالتقاليد فسافر معه إلى بامبرغ وشاهد بصحبته الكاتدرائية الرومانية " التي رآها من قبل سفراء صلاح الدين إلى بارباروسا ، وشاهدا صفوف البيوت على ضفتي نهر الريغنتز التي تبدو تماماً كأنها لوحة مائة للرسام دورر التي دخل بها الحس المكاني إلى فن الرسم الألماني " بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة أيضاً ، وهنّف باعتزاز بالفرنسية : " هذه هي ألمانيا " ولكن الضعيف اكتفى بالابتسام ، وفي أثناء الرحلة في القطار السريع العابر لأوروبا كرر مبتسماً وهو مضطجع على الأريكة المريحة : " هذه هي ألمانيا " .

ما يجعل هذا الكتاب إلى نحو بعيد جميلاً ومفيداً وممتعاً للقراءة هو : وجود متنورين يدرك كل منهما ، بلا ريب ، دوره ومحدودية هويته الثقافية الخاصة يتحاوران ويتحدث كل منهما عن الآخر ، وكل منهما واع أحياناً لمزاياه ويصف كل منهما بواسطة خطوط مفاهيمه الخاصة " أميتهما " المتباينة ، مثلما وصفها الضعيف بدون تبرير وبتمسك بالرأي ، ولكن بتهكم على الدوام تقريباً . " إنهما مقاتلان ساخران ولكن كل منهما واثق من نفسه يتبادلان الحديث بدون مصطلحات تسامح ما بعد الغرب الشمولي تلك التي تتجاهل بكل بساطة كل الاختلافات .

#### الخطيئة والتكفير

يوجد في الكتاب موقعان كانا ، بلا شك ، جدّيان على نحو لا هوادة فيه . اللحظة الأولى كانت لدى زيارة المتحف اليهودي في برلين حيث حاول الضعيف فضح كون أعداد الضحايا اليهود فرية دعائية ، في حين

ترقرقت عينا هيلفر بالدمع لدى مشاهدته لوحه يظهر فيها ولد صغير عشية هروبه من ألمانيا . هنا لا يوجد أي فهم ، بل صمت فقط : " أحياناً ينبغي أن يبقى المرء فمه مغلقاً لكي يتمكن من مواصلة حوار . " مثلما عبّر هيلفر . أما اللحظة الثانية فقد كانت حينما دار الأمر حول حقيقة أن المثلية الجنسية في البلاد العربية تعاقب بالحبس سنوات طويلة ، حتى أن مثلي الجنس يتعرضون أحياناً للتعذيب ، بل والموت . وحتى في لبنان الليبرالي تقليدياً فإن حزب الله يشي بشكل متواصل للبوليس بلوطيين ويلقي بهم في السجن .

كلما تقدم الكتاب إلى الأمام ازدادت نبرته قسوة وللأسف فإنه يحتوي على هذه الغلطة الصغيرة ولكن البنيوية : كتب الضعيف في بادئ الأمر نصاً حول هيلفر ، ثم كتب هيلفر تعليقه بعد ذلك ، وعليه فقد كانت له الكلمة الأخيرة بالمعنى الكامل للكلمة . ولهذا فإن ذلك لم يكن حواراً فعلياً بل كان في المحصلة النهائية صراعاً حول حرية التأويل في القصة الخاصة . كتب الضعيف في توضيح لاحق : " يبدو أن يواخيم لم يلاحظ أنه يجب قراءة رؤيتي في سياق ثقافتها الخاصة . لا أعرف كيف فهم نصي ولكن هناك أمراً واحداً واضحاً : لقد أساء فهمه " .

تجاذبات اختيارية

هذا صحيح بالتأكيد ، وبالذات في المواقع التي كان الضعيف يكتب فيها " أدباً " بشكل جلي ، وهذا يعني : إنه كان يؤلف ولا يسجل الوقائع الفعلية ، كان هيلفر يقاطعه في أحيان كثيرة ، وكان لدى كل منهما بطبيعة الحال " سوء فهم " وقد تلقى كل منهما الآخر حرفياً ، وجرح كل منهما الآخر بتوصيفاته التي لا تراعي أي حرمة . ولكن هكذا بالضبط ينشأ الأدب العظيم : " لقد وجدت شيئاً أدبياً في كل ما قال يواخيم عن نفسه ، وجدت شيئاً من نوع الأدب الذي أحبه ، وهذا يعني أدباً يصل بالحرية إلى مداها الأقصى . " وينبغي بالتأكيد أن يكون هيلفر قد قال مثل ذلك أيضاً حول نص الضعيف .

لقد غدت الفروق الدقيقة دراماتيكية فقط لأن القصة قد تطورت أيضاً على نحو دراماتيكي . أن يقضي أوروبي غربي مثلي الجنس ليلة في العالم المقابل البعيد المصاب بفوبيا المثلية الجنسية وينجب طفلة بالفعل . وأن يتمكن مضيفه في نهاية مدة التبادل من رواية حكاية هيلفر بصفتها نوعاً من حكايات الشفاء بـ "وليمة عرس " من أفكاره في نهاية ليلة زفاف ذات ملاءة بيضاء . إن ذلك من قبيل السخرية بالطبع ، ولكن في نقطة التحول الحياتية الدراماتيكية هذه فإن السخرية هي هجوم قاس ، فقد قابل هيلفر ذلك بالمثل تماماً ، ليس من أجل البرء من المثلية الجنسية ، ولكن من أجل الانعتاق من هوية ناجزة . لقد حسم أمره في لحظة من العزلة الوجودية ليكون أباً . إن ذلك يبدو لدى إعادة السرد متجاوزاً للمنحى المعتاد وشديد الاقتضاب ، فقد تضافرت عناصر كثيرة معاً جعلت الحادثة ممكنة ، وبالدرجة الأولى المرأة المناسبة ، وهي صحفية ألمانية ، في البرهة الزمنية المناسبة . وقد أدى ذلك بالطبع أخيراً بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة إلى الخاتمة التي لا تعني هوية جديدة كتغيير الاتجاه نحو التعددية الجنسية ، بل انعتاق من الوصف بعدم الانجاب الإجباري للأطفال . ما يزال هيلفر يعيش ، كما في السابق ، مع شريكه في برلين . إلا أن شخصاً ما فقط قد جاء بالإضافة إلى ذلك .

في نهاية الكتاب توجد هذه الملاحظة : " ولدت ابنتي في شهر تشرين الأول ( أكتوبر ) 2005 . وقد سُمح لي بحضور الولادة وقطع الحبل السري . " من النادر أن كان الأدب بهذا القرب من الحياة .

فولكر فايدلمان

صحيفة فرانكفورتر الغماينه ، الأحد 2006/11/12

ترجمة : د. إبراهيم أبو هشيش

## لم ولن يلتقيان مراجعة بقلم ميشائيل كليبيرغ

تعطّل الحوار الشرقي-الغربي: الرواية الحوارية "لوطنه العالم" لكتابتها رشيد الضعيف ويواخيم هلفر عبارة عن محضر (بروتوكول) سوء فهم بالدرجة الأولى. ليس بين الحضارات بالتأكيد. إذ لم يكن لا لنافخ مزمار الأخلاق ولا لمغني أنشودة السخرية ما يقولانه لبعضهما في أي وقت.

هذا الكتاب بعنوانه الذي يستحق بجدارة أن يكون الأبعض لهذا العام، وبعنوانه الفرعي المخادع بامتياز "خطاب مقابل خطاب"، هذا الكتاب كان من شأنه أن يكون رائعة أدبية. أما سبب فشله في تحقيق ذلك، ولماذا هو نافع على الرغم من ذلك، وما هي الطريقة التي يجب أن يُقرأ بها لكي يتم فهمه بشكل أفضل، فهذا ما تعالجه هذه المراجعة.

حُدّد مشروع "الديوان الغربي الشرقي" لتبادل الكُتاب هدفه بدفع مؤلفين ألمان وعرب للتعرف في مواطنهم على ثقافة الآخر وللتعرف على الظروف المعيشية هناك بشكل أفضل مما يعرفونه عموماً. إثنان من المشاركين وضعا الآن هذا الكتاب: الأول رشيد الضعيف، كاتب لبناني متباين الجنس heterosexual، من مواليد عام 1945، والثاني يواخيم هلفر، ألماني مثلي الجنس homosexual، من مواليد عام 1964. أما ما دفعني لتعريف الكاتبين عبر ميولهما الجنسية، فيعود إلى ما يتصف به عمل كل منهما، وهذا موضوع الكتاب الذي بين أيدينا.

تعرفّ يواخيم هلفر على امرأة ألمانية أثناء إقامته في لبنان وأنجب منها طفلاً. أمرٌ أوقد مخيلة رشيد الضعيف على ما يبدو. وبوسعنا أن نتصور كيف أن الكاتب الألماني الذي يعيش في علاقة ثابتة مع رجلٍ يكبره سنًا بكثير، والذي لم ينظر لامرأة منذ عقود، كيف يعود "إلى رشده" في لبنان بالذات، البلد الأرحب للمثليين الشرق الأوسط، وذلك تحت رعاية صديقه رشيد الضعيف الفلق على تراجع نسبة الولادات في أوروبا.

هذه الحكاية يصنع منها الضعيف عملاً روائياً رائعاً، ذات مسار متصاعد من المأساوي إلى قمة من المغالاة الهزلية: فمن خلال "حفل زفافٍ" مزركش بكل ما يمكن أن نتصوره من إضافات، حفلٌ أعدّه رشيد بغية إنقاذ يواخيم من المثلية، وعبر "قضية" هلفر يفشي الضعيف بلسان ساخر وببساطة مصطنعة بالكثير عن أدوار الرجال وعن العلاقات بين الجنسين في المجتمعات العربية بالدرجة الأولى.

يبدو جلياً أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم قد جاء بعد عقد اتفاق ما، حتى ولو أن بطلي الرواية ينظران لأسس الاتفاق بشكل متباين بعض الشيء. الاتفاق كان كالتالي: يُسمح لرشيد الضعيف أن يكتب عن هلفر وأن يذكره بالاسم، ومن ثم يرد هلفر بنص مماثلٍ عن الضعيف، بعد ذلك يتم نشر النصين الواحد تلو الآخر في نسخة الكتاب الألمانية.

لم يجر الأمر على هذا النحو. هل بسبب عدم تمكن هلفر من "كتابة النثر عند الطلب" كما يقول، أو لأنه لم يجد منطلقاً للكتابة عن زميله، أو بسبب مبالغة هلفر في تقديره لسماحة صدره لا سيما في قضية التعرية التي قام بها رشيد الضعيف – وهي قضية إشكالية بلا شك – ففضل أن يصحح الصورة -المغلوطه بحسب رأيه- التي رسمها عنه رشيد الضعيف، وأن يسלט عليها الضوء المناسب. وبدلاً من أن يرد هلفر على الضعيف كما كان متفقاً، قام بنقطة روايته عشوائياً ليضع تعليقاته وشطحاته وآراءه المضادة بين المقاطع. أما دار زور كامب للنشر فتتبع هذه التوليفة العوجاء تحت العنوان الفرعي "خطاب مقابل خطاب" باعتبارها حواراً. أمر لا يعقل. ولا بد لمن لا يريد أن يُخدع بهذه التوليفة أن يقرأ

الكتاب كما يأمل الضعيف: أي أن يقرأ نص الضعيف بدايةً مغفلاً تعليقات هلفر، ومن ثم العودة إليها بعد الانتهاء من القراءة.

المفترض أن يكون هلفر على علم بأن هذا اللعب المشابه للسيرة الذاتية هو لعبٌ بالأسماء الحقيقية والأشخاص الحقيقيين وهو صفةٌ تتسم بها كل روايات رشيد الضعيف. أسلوبٌ يعتمد مبدأً مفاده أن لا شيء يخفي الحقيقة أكثر من الواقع. يكتب الضعيف بصفة الأنا، كما يحمل أبطاله اسم رشيد دائماً، وهم يشبهونه كما تشبه بيضة أخرى. ولكن ما يكتبه ليس سيرة ذاتية أبداً، بل لعبة لولبية متشابكة مع "أنا" ذات ملامح جمعية أكثر منها فردية، "أنا" عاديةً عمداً لكي تكشف للإنسان طبيعة الإنسان.

تعامل الضعيف مع هلفر على هذا النحو. حيث هما، رشيد ويواخيم، موضوع روايته، وفي الوقت عينه ليسا هما. فقد غير في شخصيتهما وكثف طريقة سلوكهما ونمذجها. وعندما يصف الضعيف المثلي المنفلت من عقاله بكل هذا الاستغراب (المصطنع)، استغراب باحثٍ أوروبي في علوم الطبيعة من القرن التاسع عشر، باحثٌ يقف أمام طقوس بدويةٍ عجيبةٍ، فذلك يعكس بأسلوبٍ ساخر ورائع إحتكار الأوروبيين لتأويل الحضارة العربية القائم فعلياً.

كم كانت إمكانات هلفر وافرة للرد على نص الضعيف! كأن يصوره تصويراً ساخرًا، فهو والله شهيد لا يخلو من الأطوار الغربية التي كان بوسعه أن يستعرضها: معتمر النظارات ذو الشعر الخفيف ومرتدي الأنوارك الذي يغازل النساء اللاتي يرتدين الديكورتية في صالونات برلين الفاخرة. دون كيخوته، يلعب دور جورج كلوني. مهووس بالتقنيات والإلكترونيات الحديثة، يريد أن يترك آدم العربي خلفه في العوالم المتخيلة. رسول العائلة الذي يهاب الارتباط. المستفز المجنون-الذكي الذي يكيل الأسئلة الحميمة بالغة الاحراج على رأس شريكه في الحديث. الشخصية الشفكية [نسبةً لشفيك<sup>1</sup>] الخائفة الساعية للنجاة من اضطرابات الحرب كيفما اتفق. رائد المقهى-المديني الدائم الحالم بالحياة الريفية.

كان بوسعه أن يرسم صورةً عميقةً لشخصية رشيد الضعيف، وأن يروي عن الولد الذي ينتمي لعائلةٍ مكونةٍ من عشرة أفراد، الفقيرة إلى أبعد حد، المنحدرة من إحدى قرى الشمال اللبناني، الولد الذي يحب والدته حتى التأليه، الأم التي وفرت له دراسةً جامعيةً، ما لم تفعله لمعظم إخوته الذين صاروا عمالاً وميكانيكيين وبنائين في المنطقة. كان بوسعه أن يروي عن الشيوعي المقتنع، الذي غلبته الديموع عند قدومه إلى المدينة الموحدة للمرة الأولى بعد ثلاثين سنة، على ضوء الانهيارات والتحويلات العالمية التي قلبت كل شيء.

كان بوسعه أن يروي عن ضحية اعتدي عليها أثناء الحرب الأهلية، عن ذاك المصاب برضة نفسية عميقة، وبشظايا قنبلة أبقته ممدداً على قارعة الطريق يصارع بين الحياة والموت لساعات، وذلك الذي فقد عبر إيمانه بحياته الأبدية كل قناعةٍ سياسية. عن مؤلف الروايات الغربية العجيبة، العميقة في سوداويتها، الحزينة، الهزلية. أو عن الشخصية التي صعدت على السقالة في اليوم الأول للسلام المستعاد حاملاً فطوره هازاً رجليه طرباً على أنغام الحفر والطرق من حوله، موسيقى إعادة البناء بعد كل هذا التدمير العبثي.

بيد أن هلفر لا يفعل شيئاً من هذا. يختار بديلاً يقوم على التعليق على نص رشيد الضعيف، وعلى تفكيكه وإعادة تركيبه، عابثاً بالنص على هواه، وكأن أحداً قدم له النص طالباً منه أن يقطعه كلما وجد فيه ما لا يتفق مع "النزاهة السياسية".

لا يتضح لي من اعتراضات هلفر إن كان لم يفهم الضعيف أو أنه لم يكن يريد فهمه، أو هل هو عديم الفكاهة إلى هذا الحد ولا يملك إحساساً لنغمة الضعيف، أو أنه أساء فهمه عمداً، لكي يتمكن من محاكمته بشكل أفضل. ليت هلفر التفت للضعيف ولو لثوانٍ فقط، ليته نظر إليه حقاً.

1 قصة "الجندي الطبيب شفيك" للكاتب التشيكي ياروسلاف هاشيك. وشفيك شخصية تشبه سعيد أبي النحس المتشائل عند إميل حبيبي. المترجم

بدلاً من ذلك يمدحه ويوبخه من على المنبر العالي، منبر يساري ألماني غربي متسامح متعدد الثقافات محب للكينونة الإنسانية الخيرة مناهض للفاشية مسالم محب للحرية وملمّ بكل شيء، وبلهجة -أرجو منه الصفح- استعمارية متعالية. ما يسلط في النهاية ضوءاً لافتاً على المثقفين الألمان أكثر منه على الروائيين اللبنانيين.

حتى وإن وقع كل عاقل على كل نقطة في لائحة الفضائل السالفة، يشعر القارئ في كثافة العصمة الذاتية بالتعجيز والابتزاز في هذا السياق. إلا أن هلفر، صاحب الكلمة الأخيرة في هذا النص بالضرورة، لا يجانب ما كتبه الضعيف وحسب بل يحاول أن يستعرضه كذلك، متجاهلاً السخرية في نص الضعيف عن وعي أو بدون وعي، مقدماً إياه على أنه فزاعة عربية من الزمن الغابر.

هل هو فعلاً أصم أمام لعبة الضعيف؟ إذا كان الأمر كذلك فذلك سوء فهم مأساوي؛ وإن لم يكن فغدر. في المشهد المفصلي الذي أنوه له ينزع هلفر عن زميله الكرامة مقارنةً بشريك حياته اليهودي، ويصور الضعيفَ معادياً للسامية عند زيارتهما للمتحف اليهودي، محاولاً أن يعذره عبر تغيير موقفه كلياً في الظاهر -أقصد زعمه بعدم معرفة الضعيف بالمرقة- لتبدو معذرة الضعيف أكثر صعوبة.

عندما يكتب أحدٌ مثل هلفر شيئاً كهذا، ننطلق من أنه يعلم ما هو فاعل: أقصد أنه يُشهر في ألمانيا في هذه الحالة ليس برشيد الضعيف وحسب، بل بالمثقف العربي عموماً. أمرٌ ذميم يستحق الاستنكار. فليس من حق أي اعتداد مطعون، ولا أي سخط بسبب كشف الحياة الحميمة مهما كان مفهوماً أن يبرر هذا التشهير. هل رضي هلفر أن تكون حياته الحميمة مادة نص بسبب قناعاته المثالية بحرية الأدب، واعتقد فيما بعد بأنه مغدور فأراد الرد بالمثل؟

بالرغم من المرارة التي نستشعرها عند قراءة الكتاب، لا يسعنا أن ننكر أنه يكشف الكثير من إشكالات التواصل بين الناس، لكن لا يسعنا أيضاً أن نعممها على علاقة الشرق والغرب. أما نافخ مزمار الأخلاق ومغني أنشودة السخرية فلا يلتقيان في أي مكان.

ترجمة يوسف حجازي

الكتاب: "لوطنة العالم. خطاب مقابل خطاب. بيروت - برلين"، صادر عن دار نشر زوركامب. 2006  
Rashid al-Daif, Joachim Helfer: "Die Verschwulung der Welt. Rede gegen Rede. Beirut - Berlin". Edition Suhrkamp. 2006.

صدرت هذه المراجعة في صحيفة تاغستسايتونغ اليومية بتاريخ 29.12.2006